الفصل السابع

القسم الأول: علماء الدين والحوزات العلمية

نقد نظام التعليم الديني في المدارس الشرعية

لا تتضمن مناهج التعليم الشرعي أيّة إختبارات تمهيدية لالتحاق طلاب العلوم الدينية بالحوزة العلمية [المدارس الشرعية] ولذلك فإنه من الممكن أن يلتحق بهذه المؤسسة من لا يتمتع بالأهلية الكافية، ولأنه لا توجد اختبارات منظمة فالطلاب يحظون بشيء من الحرية في الانتقال من دراسة كتاب إلى آخر، وبالطبع كثيراً ما يحدث أن ينتقل الطالب إلى مرحلة متقدمة دون أن يكون قد أنهى المراحل السابقة عليها، ولذلك فإن تقدمه العلمي يتوقف ويُصاب بخيبة أمل.

كما لا يخضع الطلبة لاختبار المواهب، ولذلك فمن الممكن أن يتمتع الطالب بموهبة جيّدة في مجال الفقه، أو الفلسفة، أو علم الكلام، أو آداب اللغة، أو التاريخ، أو التفسير، أو غير ذلك، إلا أنه يدرس حقلاً آخر ولذلك فإنه لا يُستفاد منه استفادة كاملة.

من جهة أُخرى فإن الحقول الدراسية الدينية اتجهتْ أخيراً نحو أُطر ضيّقة، وتلخّصت كلها في الفقه، وانحصر الفقه عينه في حدود توقفت عن التطور والتكامل منذ مائة عام.

كما أن إحدى سلبيات المؤسسة الدينية هي الحرية اللامحدودة في الاستفادة من زيّ علماء الدين. فقد تميز رجال الدين شيئاً فشيئاً عن الآخرين بزيّهم الخاص، تماماً كما للعسكريين ورجال الشرطة وبعض المهن الأخرى أزياء خاصة.

ولكن في المؤسسة الدينية ـ وخلافاً للمؤسسات الأخرى ـ لا توجد أيّة قيود

وقوانين تحكم ارتداء هذا الزيّ الخاص، ولذلك فكثيراً ما نلاحظ أن أشخاصاً لا يتمتعون بأية أهلية علمية أو إيمانية يستفيدون من هذا الزيّ بهدف الاستفادة من مزاياه، الأمر الذي يؤثر سلباً على مكانة المؤسسة الدينية ورجال الدين.

وتدرس الحوزات الدينية علوم اللغة العربية ولكن وفق منهج خاطئ، ولذلك فإن طلبة العلوم الشرعية وبعد سنوات طويلة من دراسة علوم اللغة العربية وتعلّم قواعدها في مجالي النحو والصرف، لا يجيّدون التحدث بها. إذ لا يكون بمقدورهم لا التحدث بالعربية ولا الاستفادة من اللغة الفصحى ولا الكتابة بالعربية.

إن التطرف في المجادلات وشيوع علم أصول الفقه، رغم أنه يمنح الطالب نوعاً من الفطنة والقدرة على التفكير، إلا أنه يبعده عن نهج التفكير الواقعيّ في القضايا الاجتماعية، ولأنه حتى المنطق العقليّ الأرسطي لا يُدرَّس بالقدر الكافي، فإن المنهج الفكري للطالب يأخذ صبغة جدلية، وهذا هو أكبر عامل يجعل الطالب بعيداً عن الواقعية في القضايا الاجتماعية.

ولكن أهم أزماتنا الحالية في مؤسستنا الدينية هو ما يتعلق بالميزانية المالية، وإعاشة الطلبة، والنظام المالي، وأساليب ارتزاق رجال الدين[1].

ضعف العلاقة بالقرآن

إن إهتمامنا باللغة العربية لا يأتي من كونها لغةُ قوميةٍ معَيّنة، بل ينبع من كونها لغة القرآن الكريم. ولكن عليّ أن أعترف بأننا [علماء الدين] وبسبب انحراف المناهج التعليمية طوال تاريخ المدارس الدينية فإننا نغرق في مجموعة من الأمور الهامشية التي تفصل بيننا وبين مسيرة التعرف على القرآن. حتى اللغة العربية لا ندرسها بشكل متقن، وما ندرسه من اللغة لا ينفعنا في فهم القرآن والتدبر فيه. فلو اتجه الطالب منذ بداية دراسته العلمية نحو مطالعة الكتب القديمة والحديثة حول معجزة القرآن ـ ككتاب صادق الرافعي من الكتب الحديثة، وما كتبه عبدالقاهر الجرجاني وأبو بكر الباقلاني من الكتب

(1) مطهري. ده گفتار [المقالات العشرة]، ص248-250.

القديمة- ويتعرف منذ البداية على جوانب الإعجاز في القرآن الكريم ثم يدخل بهذه الروح في مجال القرآن ويبدأ بحفظه وضبطه، فهو يستوعب الجوانب الإعجازية في القرآن أكثر مما نفهمه نحن الذين لسنا كذلك، وإنني أستطيع التأكيد -وليس هذا بالطبع من زاوية تزكية النفس ومدح الذات، ولكن من زاوية شكر البارئ -عزّ وجّل- على نعمته هذه- على أنني ومنذ ثماني سنوات أصبحت أتلذذ باستماع القرآن وقراءته فعلاً، وأخذت استشعر في نفسي حالة مع القرآن لا أشعر بها مع غيره. وأقول في نفسي أحياناً ربما كانت هذه الحالة نابعة من أجوائنا التربوية التي كانت أساساً قائمة على التربية الإسلامية وهذا هو نوع من الانحياز والتعصب. ولكنني أرى أنه لو كانت هذه العلاقة بالقرآن ناجمة عن التعصب والانحياز لكان موقفي واحداً تجاه كل ما يحمل اسم الإسلام، ولكانت كل هذه الروايات والأحاديث المتوفرة بين أيدينا تخلق فيَّ الإحساس نفسه، بينما أجد نفسي أبتعد بشكل منظم عن الكثير من الأمور التي كانت تعتبر قديماً إسلامية أو كنت أتصوّر أنها كذلك، ولكن أجد علاقتي بالقرآن تختلف تماماً. إنني لم أكن فيما سبق أدرك شيئاً من هذا الجمال القرآني البديع رغم أنني كنت قد درست كتاب المطوّل[2] لأنه لم يكن يُغنينا في هذا المجال. أما الآن فإنني أشعر بجمال وبلاغة القرآن حقاً، خاصة حينما يُقرأ بلحن جميل ولطيف...[3].

الموقف السلبيّ من تدريس اللغة الأجنبيّة

قرر مؤسس الحوزة العلمية في (قم)، الفقيد آية الله الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي -رحمه الله - تعليم اللغة الإنكليزية وبعض العلوم التمهيدية الحديثة لعدد من الطلاب [في المدارس الدينية] وذلك لإعدادهم لمهمة نشر الإسلام في أوساط المتعلمين بل وفي بعض البلاد الأجنبيّة. عندما انتشر هذا النبأ في الأرجاء جاءت مجموعة من العامّة من طهران إلى قم وحذّروا الشيخ من قراره هذا، وقالوا: إن الأموال التي يدفعها الناس كحقوق شرعية ليست

(2) كتاب في البلاغة يُدرَّس في المدارس الدينية.
(3) مطهري. نبوت [النبّوة]، ص235-236.

لإنفاقها على تدريس الطلاب لغة الكفّار. وهددوا بأنهم سيفعلون كذا وكذا إن استمر هذا الوضع!! ولما وجد الشيخ أن هذا العمل سيؤدي إلى تفكك الحوزة العلمية وانهدام أساس التحرك، فإنه تخلى بشكل مؤقت عن قراره هذا[4].

علماء الدين وإرضاء العامّة

في الكثير من الحالات هناك نقاط تشابه بين المجتمع والفرد، ومن تلك النقاط الإصابة بالأمراض، وبالطبع فإن الأمراض الاجتماعية تختص بالمجتمع وتتناسب معه، فلكل مجتمع نوع من الأمراض الخاصة به. إن مجتمع علماء الدين يعاني من مرضٍ أدّى إلى جموده وتوقفه عن الحركة، وهو مرض «الاتجاه نحو عوام الناس» وهو مرض خطير فعلاً وناجم عن النظام الماليّ للمؤسسة الدينية[5].

وبسبب هذا المرض فإن المؤسسة الدينية لا تستطيع أن تتقدم كما ينبغي، وأن تأخذ موقعها في طليعة الأمة، وأن تكون ـ بكلمة أخرى ـ هادية للمسيرة الاجتماعية، بل هي مضطرة للتحرك خلف القافلة.

إن من خصائص عوام الناس أنهم يرتبطون بالماضي ارتباطاً وثيقاً، ولا يميزون بين الحق والباطل، ويعتبرون كل جديد بدعة أو ناجماً عن الأهواء، فهم لا يفهمون سنَّة الخلق ومتطلبات الفطرة والطبيعة، لذلك فهم يعارضون أيّ جديد ويعملون دائماً على الاحتفاظ بالحالة القائمة.

ونحن نجد الآن أن عوامّ الناس ينظرون إلى أمور مهمة وأساسية مثل: التوزيع العادل للثروة، والعدالة الاجتماعية، وشمولية التربية والتعليم، والسيادة الوطنية وأمثال هذه الأمور التي ترتبط بالإسلام بعلاقة وثيقة، بل

---

(4) مطهري. ده گفتار [المقالات العشرة]، ص263.

(5) لأن المؤسسة الدينية (الحوزة العلمية) تعتمد ماليّاً على الحقوق الشرعية التي يقدمها الناس لها، فهي مضطرة لمسايرة ومماشاة عأمّة الناس الذين لا يتمتعون عادة بمستوى ثقافيّ وعلميّ رفيع والاستجابة لضغوطها والتكيف مع توجهاتها السطحية والقشرية. (المترجم)

الإسلام يدعو إلى هذه الحقائق ويدافع عنها، ينظرون إلى كل هذه الأمور كما ينظرون إلى الأهواء الطفولية.

وعندما يريد علماء الدين المصابون بمرض «الاتجاه نحو العوامّ» معالجة قضية اجتماعية، فإنهم مضطرون للتوجه نحو الأمور السطحية وغير الأساسية، والإعراض عن القضايا الأساسية، أو تحليل الأمور بصورة تعتبر ـ وللأسف ـ دليل تخلف الإسلام ونسخه، وتصبح وسيلة تشهيرية بيد أعداء الإسلام.

والمؤسف أن هذا المرض العُضال يقيِّد الحركة بشدة، وإلا كان يتضح تماماً أن الإسلام هو جديد في كل عصر وزمان: لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، وكان يتضح للجميع إن أهم الأنظمة الاجتماعية في هذا العصر غير قادرة على منافسة ما جاء به الإسلام.

إن علماء الدين المصابين بهذا المرض لا مفرَّ لهم دائماً من ترجيح السكوت على المنطق، والسكون على التحرك، والسلب على الإيجاب، ذلك لان هذا المنهج يتفق وطبيعة العوامّ[6].

كيف نواجه تطلّعات الجيل الجديد؟

يتمتع جيل الشباب بميزات معَيّنة كما يعاني من عدد من العيوب. ذلك لأن هذا الجيل يتمتع بنوع من المشاعر والأحاسيس التي لم تكن في السابق، وينبغي أن نعتبره مُحِقّاً من هذه الجهة، وفي الوقت نفسه يعاني من بعض الانحرافات الفكرية والأخلاقية التي ينبغي معالجتها. ولا يمكن معالجة هذه الانحرافات دون الاهتمام بالميزات أيّ المشاعر والأحاسيس والتطلعات التي يتميز بها، بل علينا أن نحترم هذه التطلعات. وبصراحة، فإن الأفكار لم تكن منفتحة إلى هذه الدرجة في الجيل السابق، ولم تكن هذه المشاعر والتطلعات الرفيعة موجودة، فعلينا أن نحترم هذه التطلعات لأن الإسلام يحترمها. فلو أهملنا هذه الأمور لما استطعنا من معالجة الانحرافات. إن المنهج الذي نلتزم به حالياً تجاه الشباب، وهو منهج الشتم، والنقد اللاذع، والذم، والصراخ

(6) مطهري. ده گفتار [المقالات العشرة]، ص259-261.

دائماً ضد السينما، والمسرح، والمنتزهات، وأحواض السباحة، والتأوّه المستمر، إن هذا المنهج ليس سليماً. يجب علينا أن نفكر بشكل أساسي لمعالجة هذه الانحرافات.

والمنهج القويم الأساسي هو أن نتعرّف أولاً على مشكلة هذا الجيل، مشكلته العقلية والفكرية، التي تدل على وعيه، أيّ أن نتفهم الشيء الذي يحس به هذا الجيل، والذي لم يكن يشعر به الجيل السابق.

ففيما سبق كانت الأبواب موصدة في وجه الناس، ليست الأبواب وحدها بل حتى النوافذ. ولم يكن أحد يعرف ماذا يجري في الخارج. لم يكن الشخص يعرف شيئاً عما يجري خارج بلده ووطنه. أما اليوم فإن جميع الأبواب والمنافذ مفتوحة، والناس يشاهدون مسيرة التقدم في العالم، يشاهدون تطور العلوم والقوى الاقتصادية العملاقة في العالم، كما يرون القوى السياسية والعسكرية، ويرون الديمقراطيات، والحركات، والثورات. هذا هو الشباب، ذو تطلعات عالية، ولهم الحق في ذلك، فهم يتساءلون: لماذا نحن متخلفون؟ فالعالم يحث المسير نحو الاستقلال السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، وكَسْب المجد والقوة والعزة والحرية، بينما نحن نغط في النوم، أو نتفرج على المسيرة من بعيد ونتثاءب؟!!

إن الجيل القديم لم يكن يشعر بهذه المتغيرات. أما جيل اليوم فمن حقه أن يسأل: إذا كانت اليابان الوثنية وإيران المسلمة قد قررتا في وقت واحد اقتباس الحضارة والصناعة الحديثة، فلماذا وصلت اليابان إلى ما وصلت إليه بحيث أصبحت تنافس الغرب، بينما إيران متوقفة في المستوى الذي نرى؟!

أليس من حق الجيل الشاب أن يطرح هذا التساؤل؟

إن الجيل القديم لم يكن يشعر بوطأة الهيمنة الأجنبيّة على عاتقه، بينما الجيل الجديد يشعر بذلك. هل هذا ذنب؟ كلا!، هذا ليس ذنباً، بل إن هذا الشعور هو رسالة إلهية.

إن عدم وجود هذا الشعور كان يعني أننا مرغمون على تحمل العذاب والشقاء، ولكن ظهور هذا الشعور في الجيل الجديد دليل على أن الله -سبحانه- يريد إنقاذنا من هذا الشقاء.

وفيما سبق كان المستوى الفكري للناس هابطاً، وقلّما كان الناس يثيرون الشكوك والتساؤلات، أما الآن فالأمر يختلف. ومن الطبيعي حينما يرتفع المستوى الفكري درجة، فإن تساؤلات جديدة تُطرح بينما لم تكن تثار في السابق، ويجب علينا معالجة الشك والتردد والإجابة على التساؤلات والإشكاليات الفكرية. ولا يمكن أن نطالب الشباب بالعودة إلى الحالة السابقة، بل إن هذا الأمر يُعتبر أرضية مناسبة لانفتاح الناس على الحقائق والمعارف الإسلامية، إذ لا يمكن عرض الحقيقة على شخص جاهل أُمّيّ. بناءً عليه فإننا كنا نحتاج لهداية وقيادة الجيل القديم الذي كان مستواه الفكري هابطاً إلى نوع خاص من التعبير والدعوة والكتب، أما الآن فإن ذلك النوع من التعبير والكتب لا ينفع المجتمع، بل يجب علينا القيام بعمل إصلاحي عميق في هذا المجال. علينا أن نتعلم منطق العصر، ولغة العصر، وأفكار العصر، ثم نقوم بواسطتها بهداية الناس وقيادتهم[7].

لا حصانة ولا عصمة للعلماء من الذنوب

يتصور بعض الناس إن تأثير الذنب على الأفراد ليس بدرجة واحدة، فالذنب له تأثير سلبيّ على الناس العاديين إذ يُخرجهم من إطار التقوى والعدالة، بينما لا يؤثر الذنب على طبقة العلماء، إذ يتمتع العلماء بنوع من «الحصانة» و«العصمة» تماماً كالفرق بين الماء القليل والماء الكثير (ماء الكُر)، إذ لو كان الماء الكثير بقدر كُرّ فإنه لا ينفعل بالنجاسة (أي لا يتنجس)، بينما نجد أن الإسلام لم يجعل لأي شخص «حصانة» و«إعتصاماً» ضد تأثير الذنب، حتى لشخص النبيّ ﷺ حيث يخاطبه الله -عزّ وجّل-﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: 15] ذلك لأن الله يقول له: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ

(7) المصدر السابق، ص182-186.

لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]. كل هذا لكي يعلّمنا الله أنه لا تمييز بين الناس، ولا توجد حصانة لأحد[8].

الاستقلال المالي بين السلب والإيجاب

إن الطريقة المعمول بها حالياً بالنسبة لـ «سهم الإمام»[9] لها جوانب إيجابية وسلبية. فالجانب الإيجابي هو أن أساس هذا العطاء المالي هو إيمان الناس وعقيدتهم فقط، إن فقهاء الشيعة لا يعتمدون في توفير ميزانياتهم على الحكومات، لذلك فإن تعيينهم وعزلهم ليس بيد الحكومات أيضاً، ولهذا السبب فانهم يحتفظون باستقلالهم على الدوام بإزاء الحكومات، ويعدّون قوة مستقلّة بإزاء سلطة الحكومات، وقد يثيرون المتاعب للحكومات في بعض الحالات.

إن هذا الاستقلال المالي، والاعتماد على إيمان الناس جعل الفقهاء في كثير من العصور قادرين على معارضة انحراف السلطات وإسقاطها في بعض الحالات. ولكن هذا الأمر يُعتبر نقطة ضعف علماء الشيعة من جهة ثانية. فعلماء الشيعة ليسوا مُرغمين على طاعة الحكومات، إلا أنهم مضطرون للاهتمام بطبائع عوام الناس المموّلين، وآرائهم واستقطاب ولائهم، وإن أكثر المفاسد والسلبيات الموجودة في أوساط علماء الدين ناجم عن هذه السلبية بالذات[10].

التقيّة المحرَّفة

إن مفهوم «التقيّة» هو أحد المفاهيم المعقولة في الثقافة الشيعية ويؤيده القرآن والعقل. وتعني التقية: العمل في الدعوة على أساس تكتيكات معقولة

---

(8) المصدر السابق، ص93، 94.

(9) يتم تقسيم الخُمس في الفقه الشيعيّ إلى سهمين: «سهم السادة الأشراف» وهو ما يدفع إلى الفقراء والمساكين من المنتسبين إلى الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته (أي بني هاشم). و«سهم الإمام» وهو ما يدفع للفقيه الجامع للشرائط لإنفاقه في سبيل الله. (المترجم).

(10) المصدر السابق، ص256.

تحافظ على الطاقات بأفضل الوجوه. وبالطبع فإن أيّ فرد يناضل في جبهة معَيّنة يُعتبر طاقة مهمة لتلك الجبهة، سواء من حيث حياته الشخصية أو امكانياته الاقتصادية، أو شخصيته الاجتماعية. ولا بدّ من العمل الجادّ للحفاظ على هذه الطاقات، فلماذا إهدار الطاقات دون سبب؟ ولماذا تضعيف الطاقات دون مبرر؟ بل يجب إبقاء الجبهة في أقوى حالاتها. فالتقية نوع من الدرع الواقي في النضال. فالكلمة مشتقة من مادة «وقى» بمعنى الصيانة والوقاية. فليس واجب الشخص المناضل أن يقضي على عدوّه في النضال فقط، بل الواجب عليه صيانة نفسه أيضاً. فالتقية تعني: «إنزال أقوى الضربات وتَوَقّي أكثر الضربات» فهي تكتيك عقليّ في المسيرة النضالية.

ولكننا اليوم نجد أن هذه الكلمة فُرِّغت من مفهومها الأصلي تماماً، واتخذت مفهوماً مضادّاً للنضال. فالتقية تعني عند المرفهين وطالبي الراحة، التهرب من ساحة المواجهة وترك المعركة لمصلحة العدوّ. والاهتمام في المقابل بالمناقشات والجدليات الجوفاء[11]

(11) مطهري. علل گرايش به ماديگري [الدوافع نحو المادية]، ص215-216.